الأنثى فى المجتمع العزبى

١ ـ كراهة الاناث
٢ ـ الموءودة
٣ ـ أمر من السماء
٤ ـ ونبى انسان !

كراهة الاناث

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة ، قد حببت العرب الاقدمين في الانجاب وأغرتهم بالحرص على كثرة الولد • واذا قيل هذا عن البنين ، فالامر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث ، بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الامور • وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار ، يقصدهن أول مايقصد فيكون السبى الذى يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار

ومن أجل ذلك ، كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهى كراهة تتمثل فى صور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد • وقد سجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذى كان ينتظر الانثى ساعة ولادتها ، بأسلوب يجل عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف اثارة :

« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم — يتوارى من القوم من سوء مابشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » • سورة النحل آية ٥٧ : ٥٩

ووعى ديوان الشعر العربى ، ذلك النشيد الحزين لأم هجرها زوجها حين ولدت له أنثى :

ما لأبى حمزة لا يأتينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا !

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأنثى :

« آمنكم الله عارها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر»

وما أكثر من رجوا لبناتهم هذا الصهر الرهيب ، ورأوا فيه خير الاصهار ، قال شاعرهم :

لـكل أبى بنت يرجى بقاؤها

ثلاثة أصهار اذا ذكر الصهر :

قبيت يغطيها،وبعل يصونها ،

وقبر يواريها، وخيرهم القبر !

وأنشد آخر :

انى وان سيق الى المهر : ألف ، وعبدان وذود عشر

أحب أصهارى الى القبر !

وشاعت فيهم القولة المأثورة : «دفن البنات من المكرمات»

الموءودة

وما كنا لنطيل الوقوف عند هـــذه الكراهة التى نراها أثرا محتوما للبيئة ، لولا أنها تمثلت فى مأساة الوأد البشعة، التى ماتزال حتى اليوم تؤرق الضمير الانسانى

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحـــة والعار

ويقال ان أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه روع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، واذ انحـدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقى ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النســاء من خيانة وسوء

ويذكرون كذلك فى هذا المقام قصة رواها غير واحد من المؤرخـــين وأئمـــة المفسرين كالنيسـابورى والزمخشرى والقرطبى ، وخلاصتها أن « النعمان بن المنذر »أغار على تميم حين منعته الاتاوة ، فحاربهـم وسبى نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم ــ شيخ تميم ــ ليسترد ســباياه ، تخلفت بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان، فعاد «قيس» وقد جن غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لاتولد له بنت الا وأدها

واقتدى به رجال من تميم وغيرهم

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لما يعرفون من عجز الانثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت ، على التعرض لعوادى الزمن وأفاعيل الحدثان ، واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال هم الانثى ، والقلق عليها، ومعاناة الكرب الذى صوره الشاعر فى قوله :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ
وكنت أبكى عليها من أذى الكلم
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا
والموت أكرم نزال على الحرم
اذا تذكرت بنتى حين تندبنى
فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمت ، فلا هم يؤرقنى
بعد الهدوء ولا وجد ولا حلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قدمت فيها الاناث قرابين الى الآلهة ، على نحو ماعرف عن مصر قبل الاسلام من تقديم عروس للنيل ضحية وقربانا .ولعل هذا هو مايشير اليه القرآن الكريم فى آيات عدة ، نعى فيها على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا بالبنين:

« ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم مايشتهون » .
« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ؟ انكم لتقولون قولا عظيما »

كما عجب لهم : يحبون البنين هـذا الحب ، ثم يسمون أصنامهم بأسماء اناث ، مستصفين لأنفسهم البنين :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثـة الاخرى ، ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى!» النجم١٩:٢٢

« ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسميـة الانثى ، وما لهم به من علم ان يتبعـون الا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا » • النجم ٢٧ : ٢٨

ولو كان الامر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء اناث،لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والانانية العشواء لاتدع لصاحبها عقلا،وما دام الناس منذكر وأنثى ، فليتقاسموهما مع الله:لهمالبنون ولله الاناث :

« فاستفتهم : ألربك البنـات ولهم البنـون ؟ أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ؟ ألا انهم من افكهم ليقولون : ولد الله ، وانهم لكاذبون ـ آصـطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ؟ »

ووأدوا خشية فقر واملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك مئات ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده • وأخريات فداهن « عمرو بن زيد بن نفيل القرشى »

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيـد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها • فلما سألها صعصعة

عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هـــذا زوجى يريد أن يئد ابنتى • وانثنى صعصعة الى الرجل يسأله : ماحملك على هذا ؟

أجاب : الفقر

فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لايسمع بموءودة عن فقر الا سعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده الفرزدق قائلا:

وجدى الذى منع الوائدات
وأحيـــا الوئيد فلم يوأد

أجار بنات الوائدين ومن يجر
على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وكذلك حدثوا أن «زيد بن عمرو بن نفيل» ، كان اذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته ، مضى اليه فقال : «لاتقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » • فاذا كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه فى أمرها، وخيره بين استردادها أو بقائهـا حيث هى فى كنف الذى استحياها

قال ابن اسحاق فى السيرة :

« حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ـ وهو ابن عمه ـ قالا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ قال : نعم ، فانه يبعث أمة وحده »

أمر من السماء

والوأد عن فقر ، هو الذى آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح ، فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » . الاسراء ٣١ ، وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » . الانعام ١٥١

والقرآن فى هذا ، يمضى بالوأد الى سببه الاهم والأبعد، ويتجه به الى التفسير الاقتصادى الذى هو أحدث نظرية فى فهم التاريخ ، سواء فى ذلك التاريخ السياسى ، والاجتماعى ، والفنى

فمهما تتعدد الاسباب التى قيلت فى تعليل الوأد ، فمن اليسير ردها جميعا الى العامل الاقتصادى ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئة المادية : فوأدهم ذوات العاهات يفسر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكن عالة على الآباء

والوأد تأثرا بعبادة قديمة ، يعلل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصوا الاناث به ولم يجودوا بالبنين الا فى حالات نادرة ، لانكاد نعرف منها فى العصور المتأخرة الا ماكان من نذر «عبد المطلب » ليذبحن أحد بنيه لله فى الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو كما تقول الرواية ، لم يرض أن يجود بأحد أبنائه ، الا بعد أن اشترط عددا معينا من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه ، ومع ذلك لم تكد

الشفرة تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ »

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء «عبد الله » من الذبح بمائة من الابل ، نحرت هنالك عند الكعبة ، وتركت لايصد عنها انسان ولا سبع !

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتزت قريش ، ولا عناها الامر فى كثير أو قليل ، وانما ربعت لأن ذبح ولد — ولو كان الذبح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس — يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب : « فما بقاء الناس على هذا ؟! »

والوأد خوف العار ، يمكن كذلك أن يرد الى سبب اقتصادى ، فالاغنياء يكرهون الاناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذى جعل الواحد منهم يخلف على نساء أبيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حماية لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبى أو الزواج من غير كفء . ويبين هذا بوضوح ، فى حديث «قيس بن عاصم» حين وفد على الرسول واعترف بأنه ماولدت له بنت الا وأدها ، فسأله أحد المهاجرين : فما الذى حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك ! قالوا : فتبسم

رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر

هو العامل الاقتصادى اذن ، يرد اليه كل ماقيل عن أسباب الوأد فلا يتخلف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هذا العامل بالذكر ، وفسر الوأد تفسيرا اقتصاديا ، راجعا به كما قلت الى السبب الاول والابعد ..

ويصف لنا الزمخشرى فى «الكشاف ١٨٨/٤ » كيف كان يتم الوأد : يخرج الرجل بوليدته وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتا رموا بها فى الحفرة ، وان ولدت ذكرا أمسكوه وعادوا به»

▭

تلك صورة بشعة غبراء لوضع الانثى فى الجاهلية ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب كن فيها اذ ذاك موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الاخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من ايثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والارواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذى يرجع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، يصدع سمع الانسانية ، بحيث تتوه فيه أصداء أخرى من مثل قول « معن بن أوس » وقد رزق ثلاث بنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم

وفيهن ـ لاتكذب ـ نساء صوالح

وفيهـن والايام يعثرن بالفتى
عـــوائد لايملنه ، ونوائـــح

بل كدنا ننسى ـ فى غمرة الاسى لمأساة الوأد ـ أن من الآباء من كنوا بأسماء بناتهم ، كأبى أمامة النابغةالذبيانى، وأبى الخنساء قيس بن مسعـود الشيبانى ، وأبى ســـلمى ربيعة ابن رباح (والد زهير) ، وابى عفراء حنظلة الطائى ، وأبى ســـفانة حاتم طيىء ، وأبى عـزة عمرو بن عبد الله الجمحى

وغاب عنـا كذلك ـ أو كاد ـ أن من سـادة العرب من كرموا بمدح بناتهم ، وأن من هؤلاء البنات من استجير بها فأجارت ، كبنت عوف الشيبانى ، وفكيهة بنت قتاد التى أجارت « السليك بن السلكة » فأثنى عليها فى شعره الثناء المستطاب

▭

ويزيد فى فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صـداها ، أن قيل ان الواد كان عاما فى القبائل كلهـا ، على ما نقـل « الميدانى » فى كتابه « مجمع الأمثال : ١ ـ ٣٨٩ » والنويرى فى كتابه « بلوغ الارب ٣/٤٢ » ، وان أكد رواة آخرون ، ان الواد لم يكن فى غـير تميم وقيس وأسد وهـذيل وبكر ابن وائل ، وانها جميعا تخلصت منه قبل الاسلام ، الا تميم ، فقد جاء الاسلام وفيها الواد لا يزال

ومن المحزن حقا ، اننا اذا استطعنا أن نجزم بأن الواد لم يكن شائعا ولاواسع النطاق ـ وهذا لايهون من بشاعته ـ فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ؛ ولا نحن بقادرين على الارتياب فى أمره وقد تواترت به الأنباء وسجله عليهم كتابنا الكريم

...

٢ ـ بنات النبى

كل الذى نملكه هو أن ننفى عموم الوأد ، ونأبى القول بأنه كان فى نطاق واسع ، والا كان ضربا من الانتحار الجماعى ، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض

على أننا لا نكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف اليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت بقاياه كما قلنا فى انتماء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفى تسمية العشيرة باسم « البطن » وفى تسمية الاصنام والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الابادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض ، هو وأد الفتاة تأثرا ـ فى رأى بعض علماء الاجتماع ـ بالطقوس الدينية القديمة

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لا تدانيها قوة غريزة أخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع

وكانت هناك انوثة فى حياة كل رجل : أما ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أختا ، تلطف من النظرة البغيضة الى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاقتصادى الذى يجعل البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية الى البنت قد اعتبروها كلا عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى الجانب الآخر ، وهى أنه لا سبيل الى ولد لا تحمله انثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه

رجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ، مقدرة ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمار الكون ، غير معنية بما اذا كان القوم منتبهين الى هـــذا أو غير منتبهين

ومن هنا رجحنا فى اطمئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وهذا ان لم يهون من بشاعة المأساة ، فلا أقل من أن يلفت الى الجانب الآخر من حياة الأنثى فى المجتمع العربى بالجاهلية حيث عاشت الناجيات من الواد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . ومن شـاء فليرجع الى الفصل الذى كتبته عن « الأنوثة والأمومة » فى كتابى « آمنة بنت وهب » ليقرأ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الاناث وتقـديرهن واعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فتئد البنت كراهة لها أو لفرط حبها اياها وخوفها عليها ، وتزهـد فى ولادة البنت ، فى الوقت الذى تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ، وتضيق ببنت تولد ، مع انها تسمو بها « أما » الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار . لا غرابة فى هـــذا ، فالحيـاة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضـطرب سير الفلك . والامر فى واد الأنثى أو اعزازها ، مرده الى العادة والعرف ، والى التقليـــد الاجتماعى الذى لايعتمـــد على شىء من التفكير ، وانما يتم بتوجيه الراى الجماعى دون أن يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه ، ولذلك نرى فى الجماعة عرفين متناقضين فى الوقت الواحد كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الاصنام بأسماء اناث ، وهـــذا

مظهر تقديس وتكريم ، ومن واد البنات زهدا فيهن وضيقا بهن ، وكالذى نشهده اليوم فى البيئة الرجعيـة المحافظة ، تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخـروج والاحتراف ، ثم تأبى فى الوقت نفسـه على خاطبها أن يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة والدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لهـا فى الالتحـاق بمعاهد الرقص والتمثيل . ويحـدث احيـانا ان تطـالب الجامعيات من المتخرجات فى كليـة الحقوق ، بمنـاصب القضاء فتثور ثائرة المحافظين وتأبى السلطات ان تستجيب، متحرجة باسم الاسلام ، من ولاية الأنثى المسلمة ، مع انهم فى الوقت نفسـه لا يحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسلمين من تحترف الرقص أو تشتغل فى الملاهى الليلية او تشرب الخمر علنا فى الحانات !

وانما يحدث هذا التناقض ومثله ، لانها كما ذكرت مسائل تقليدية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة، ويتاثر بعقليـــة القطيع ، فيسيغ ما يأباه عقله ، ويتحمس لتأييد ما كان زعيما بمعارضته لو نجا من احتـكام العادة وسلطان التقليد واستهواء الراى العام

ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الانثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الاخبـــار المروية فى اعزاز الانثى وتكريمها ، والتماس الادلة والشواهد المؤكدة بان ماساة الواد لم تكن عملية ابادة بالجملة ، اقول : لا نملك بعد هذا كله الا ان نعترف بان منزلة البنات كانت دون منزلة البنين

وكذلك غبر العرب زمانا ومنهم من يدس وليـــدته فى التراب ، ومنهم من يمسكها على مضض وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها معنى بها ، حتى يدفعها الى زوج كفء ، أو يسلمها الى القبر خير الاصهار

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التى جاوزت فى بشاعتها اقسى المدى ، واول ما نزل من آياته تعالى فى الواد ، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الاكبر :

« واذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » التكوير ٨،٩

ثم حكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين قتلوا اولادهم :

« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، وقدضلوا وما كانوا مهتدين » الانعام ١٤

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى فى سورة الاسراء وهى مكية :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا . . . ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا »

وقوله فى آية ١٥١ من سورة الانعام ، وهى آية نزلت بالمدينة :

« قل تعـــالوا أتل ماحـرم ربكم عليـكم : ألا تشركـوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

والمفسرون ، على ان قتل الاولاد فى الآيتين ، يعنى واد البنات . « الكشاف ٢ ـ ٣٥٩ »

على ان تحريم الواد لم يكن ليمنع من الضيق بالبنات او يحول دون الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد : فمن اعماق الدهر الاول ، بقى صوت نوح عليه السلام ، اذ يعد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلا :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم باموال **وبنين** ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا »

ولم تنج من محنة الزهـــد فى ولادة الانثى ، « **مريم** » **العذراء** المصطفاة على نساء العالمين :

« اذ قالت امراة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك انت السميع العليم . فلما وضعتها انثى قالت : رب انى وضعتها انثى ـ والله اعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالانثى ، وانى سميتها مريم »

هى اذن نزعة قديمة فى البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فينا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الاسباب الاولى التى دعت اليها ، والعوامل القديمة التى قضت بها فى اول الامر . فخروج المراة الجديدة الى ميدان العمل ، وقدرتها على الكسب المادى ، واتاحة الفرص امامها لتظفر باعلى المناصب وترقى فى « كادر الموظفين » الى اقصى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الانثى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا اعفاها ساعة ولادتها

ن الاستقبال البغيض الذى تصوره الاغنية الحزينة
لذائعة على لسان الام :

لما قالوا دا غلام انشد حيلى وقام
وجابوا لى البيض مقشر وعليه السمن عام
ولما قالوا دى بنيه انهد ركن البيت عليه
وجابوا لى البيض بقشره وعليه السمن ميه

قد يقال هنا ان تغير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة
لانثى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، او خشية
نتت مال الاسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن
بنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث
لسلوك ، وفى الاسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ؛ وما
ك الا لان كراهتهن ميراث قد انحدر الينا من قديم
حقب ، وعادة نشأت فى الاصل بحكم البيئة واثر العوامل
ادية ، ثم اخذت مجراها فى مشاعرنا على طول الزمن ، فلم
د من السهل التخلص منها ، حتى مع تغير البيئة ، وزوال
وامل المادية

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره
حكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، لم يرج من القوم ان
يروا فى مشاعرهم نوازع الوراثة العاطفية وسلطان الطباع
ى صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها فى نفوسهم على
بع العصور وتعاقب الاجيال ، لكنه كذلك ، فى تساميه
نسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضا بالبنات
عمايتهن من اثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة
ثة على اتقاء الله فيهن ، حاضة على انصافهن ومساواتهن
نين قدر ما تحتمل الطبائع والاوضاع

النبى الانسان

وما احسبنى فى حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمادية التى حماها الاسلام للمراة ، او بيان المنزلة الكريمة التى وضعها فيها ، فقد كثر القول فى هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المراة ، وكانت الشريعة الغراء هى النبع الاول الذى استمدمنه دعاة التحرير ادلتهم واسانيدهم لدفع ما حاق بالمراة الشرقية فى العصور المتأخرة من ظلم ، وتحطيم الاغلال التى كبلتها باسم الدين والدين منها براء ، لكن يطيب لى مع ما اعرف ويعرف القراء من هذا كله ، ان اروى بعض ما قرات من وصايا الرسول الكريم بالاناث ، واعرض هنا من حديثه معهن ، ما اراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن ابوته لبنات اربع

نقل « البخارى » فى صحيحه ، ان السيدة عائشة قالت : « جاءتنى امراة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، اخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بامرها فقال : من بلى من هذه البنات بشىء فاحسن اليهن ، كن له سترا من النار »

وفى صحيح « مسلم » عن انس بن مالك انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى

تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو (وضم أصابعه) »

وفى سنن ابن داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له انثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ـ يعنى الذكور ـ ادخله الله الجنة »

وروى البخارى كذلك حديث الصحابى الذى جاء يستأذن الرسول فى ان يوصى بماله للمسلمين ؛ اذ كان لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن احكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟ فلما اجاب بنعم ، ابى عليه الرسول ان يوصى بماله وله بنات

وكذلك فعل الرسول مع امراة من الانصار جاءته بابنتين لها فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم احد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالا الا اخذه ، فما ترى يا رسول الله ، فوالله لا تنكحان ابدا الا ولهما مال » فقال الرسول متأثرا : « يقضى الله فى امرك » وامهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى المراة وصاحبها . فلما جاءا قال لعم البنتين : « اعطهما الثلثين ، واعط امهما الثمن ، وما بقى فهولك » سنن ابن ماجه ١٨/٤٨

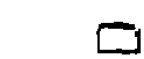

وما رؤى اكرم منه قط فى معاملة الاناث والترفق بهن والانتصاف لهن ، ولقد يكفينى هنا ، ان اشير الى موقف نبيل ، لا اعرف ادل منه على مدى ما كانت الانثى تطمح اليه من عزة وكرامة فى كنف الرسول : عن عائشة رضى الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب :

ان ابى زوجنى ابن اخيه ليرفع بى خسيسته وانا كارهة . فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتى النبى صلى الله عليه وسلم

وجاء النبى ، وسمع شكوى الابنة ، فارسل الى ابيها حتى اذا حضر ، جعل امر الفتاة اليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة :

« قد اجزت ما صنع ابى ، ولكن اردت ان اعلم : اللنساء من الامر شيء ؟ »

ولقد اجارت زينب بنت الرسول أبا العاص بن الربيع عندما اسر بالمدينة قبل ان يسلم . واستأمنت « ام حكيم بنت الحارث بن هشام » ـ عام الفتح ـ لعكرمة بن ابى جهل ، فأمنه الرسول ، مع انه كان قد ذكر اسمه بين الذين امر بقتلهم ولو وجدوا تحت استار الكعبة . وفى صبيحة يوم الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت ام هانىء بنت ابى طالب ، فدخل اخوها « على » فى اثرهما فقال : والله لاقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول وهو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم ، واصرار اخيها « على » على قتلهما ، فقال الرسول :

« قد اجرنا من اجرت يا ام هانى ، وامنا من امنت ، فلا يقتلهما » . السيرة ٤/٦٠

ثم كانت معاملة النبى للاناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذى طمعن فيه او رنون اليه من عزة وكرامة ومروءة

وما من ريب فى ان البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص الرسول الكريم لتقاوم

ما الفته فى معاملة الاناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، أن نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء امرا حتى انزل الله تعالى فيهن ما انزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا انا فى امر ائتمره اذ قالت لى امراتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : ومالك انت ولما هاهنا ؟ وما تكلفك فى امر اريده ؟ فقالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد ان تراجع انت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :

ـ يابنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأجابت :

ـ انا والله لنراجعه !

« ثم خرجت حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى :

ـ عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه ؟

« فأخذتنى اخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت اجد »

وهذا الخبر وحده ، يغنينى عن مزيد من البيان لمدى الحاجة القصوى فى بيئة الرسول ، لمثل اعلى يروضها على تغيير موقفها من الاناث ، فهذا عمر ، صهر النبى وصاحبه الذى اعز الله به الاسلام ، قد تلا ما نزل من آيات الله فى النساء ، وكان من افقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك

كره ان تشترك معه زوجته فى أمر له ، وانكر منها أن تشير عليه برأى ، فلما تمثلت بابنته حفصة ، استفظع واستنكر ، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع وانه ليطمع فى أن تجيب بلا ، لكنها اكدت له انها ، ونساء النبى ، يراجعنه ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق اذنيه ، الى أن ردته « ام سلمة » بكلمتها التى تفيض عزة واباء :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه؟»

وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب ان رأينا « ابا دجانة » الفارس ، يأخذ سيف الرسول فى معركة احد ، وينطلق به مختالا وقد عصب راسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى احدا من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هندا بنت عتبة » تزار فى قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث ان ينأى به عنها وهو يقول : « اكرمت سيف رسول الله ان اضرب به امراة »

هذا هو « محمد بن عبد الله » فى انسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وابوته الرحيمة التى تفيض بارق المشاعر وانبل العواطف ، واحسب أن قد آن الاوان لنتحدث عنه صلى الله عليه وسلم ابا لبنات اربع ، رزقهن جميعا قبل ان يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنه فى نضاله الاقداس ومعركته الظافرة الخالدة